

# المبحث الاول

## الغريزة والعقل

الغريزة قوة فطرية ، تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة .  
والعقل ملكة كسبية ، تتولى ضبط الأفعال ضبطاً إراديّاً بتدبير  
خاصّ ، لغرض مقصود .

وباختلاف وسائل الكسب تتفاضل عقول الأشخاص ، فتتنوّع  
الأعمال الناجمة عنها ، على أنّ عقل الشخص الواحد تتفاوت أفعاله ،  
باختلاف أطواره والمؤثرات فيه .  
أمّا الغرائز فكلُّ نوع منها يجري على منوال واحد ، قلّما أدركت  
فيه تفاوتاً .

فأعمال العقل متخالفة ، وأعمال الغريزة متشابهة . يظهر لك هذا  
الفرق جليّاً عند مراقبة شئون الناس في تدبير مصالحهم ، والافتتان  
في مصانعهم والتحيُّل في المنافسة والغلبة . ولا ترى مثل ذلك لدود  
القرز في صنع الحرير ، ولا للنحل في جمع رحيق الأزهار ، ولا للخُطّاف  
في المهاجرة .

وقد جعل بعض الباحثين الغريزة (الإلهام) خاصة بالحيوان .

وجعل العقل حبساً على الإنسان . ورأى آخرون أنّ عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان ، وكرّمه الله ففتح العقل الذي به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه ، وما عرفه من غيره . ومال آخرون إلى أنّ الغريزة في الحيوان ثابتة السكيان ، وتهذب في الإنسان ، ومنها إذ ذاك يتولّد العقل .

فالغريزة والعقل عند الإنسان قوتان منفصلتان ، فتتولّى الغريزة تدبير الجسم في الطور الأوّل من الحياة ، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجاً حتى تتضاءل الغرائز وتتسيطر القوى العاقلة ، غير أنّ الغرائز حينئذ تبقى أثراً يدلّ على حالتها الأولى التي اشترك فيها الإنسان والحيوان . ويذهب الحكيم وليم جيمس<sup>(١)</sup> إلى ضرورة وجود الغرائز في تركيب الإنسان ، ولو بعد استيفاء العقل حظّه من السكال ؛ وإنّ نموّ العقل لا يدلّ على أنّ الغرائز ضعفت وفنيت ، بل يدلّ على أنّها تهذبت ، ايتسنى لها مزاولة الأمور وتدبير الشئون . وقد اعتدّ بهذا الرأي المتأخرون من المرّبين .

---

(١) ( William James ) وليم جيمس توفي سنة ١٩١١ عالم أمريكي

نبح في الحكمة العقلية وقام بتدريسها في جامعة هارفارد ( نيويورك ) تأليفه  
جذابة فياضة سلك فيها مسلك الابداع

## الغرائز عند الحيوان

إن العالم مورجان<sup>(١)</sup> شرح ما عسى أن يكون غريزة بمحثة شرحاً تجرّيبياً . جمع بيض دجاج ، وهبأه للإفراخ ، فسمع صياح الأفراخ قبل تقف<sup>(٢)</sup> البيض ؛ ووجد الفرخ وهو داخل القَيْض<sup>(٣)</sup> والغرقى<sup>(٤)</sup> يحاول أن ينز الخزانة الهوائية الداخلية ، ليستنشق ما فيها من الهواء ، ثم يشقّ القشرتين بنفسه ليخرج إلى عالم الحياة . وضع هذه الأفراخ في حظيرة ، وعزل بعضها عن بعض ، ورمى إليها حبوباً مخلوطة بالحصى ، فشاهدا جميعاً تتبّع نظاماً واحداً فتزدرد الحبّ وتبذ الحصى ، ثمّ تدأك منقارها بالأرض يمتنة ويسرة ، تفادياً ممّا يكون علق به ، ثمّ عاد نخلط هذا الحصى بالحبّ ، ورمى به إليها ، فآها تفعل ما فملته أوّلاً ، يهيجها نظر الحبّ ويبعث فيها الشوق إلى التقاطه ، ثمّ إن ذوقها الفطرى يدفعها إلى زرده أو نبذه . كل هذه الحركات المنتظمة المتجانسة خاضعة لسلطان الغريزة ولا دخل للكسب فيها . ومن يطلع على غرائز الحيوان لا يسمعه إلاّ الدهشة من بديع خلقها ، وغريب أثرها . فنمل الحقول بمحذقه الفطرى ينقل بيضه

(١) ( Lewis Henry Morgan ) لويس هنرى مورجان عالم طبيعى

مات سنة ١٨٨١ واشتهر بين الامريكيين بأبحاثه فى علم الانسان (٢) ثقب

(٣) القشرة العليا اليابسة على البيضة (٤) القشرة الملتزقة ببياض البيضة

من ركن إلى آخر تكون حرارته كافية لنفسه . والخُفَّاش<sup>(١)</sup> يتقي ما يقع أمامه من الحواجز ، وهو طائر في جنح الليل ، بما يشعر به من الصدى . فإنَّ جناحيه يهزان الهواء ، فتنتشر أمواجه ، وتنعكس على ما تلاقيه من الأشباح ، وتعود إليه فيشعر بها .

والعنكبوت تنزل من لعابها خيطاً ، تلتصق طرفه بالسقف ، ثم تهبط عليه أو تصعد ، وتنسج من خيوطه شبكاً ، تتخذها شراً كاصيد الذباب .

والحرباء تتلون بلون ما يجاورها ، فيكون ذلك ردءاً يدفع عنها العدوان . والقنفذ وقد تسأح جسمه بالحسك ، يضمُّ بعضه إلى بعض إذا أحسَّ مكرهاً . والحلزون يرتدُّ إلى صدفة . والقطُّ ينتفخ فيحكي صولة الأسد في ساعة الخطر . ولكلِّ حيوان خاصَّة تناسب أعضائه يجردها للدفاع عن حياته ، ويعرف بتريزته كيف يستعملها ويناضل بها ، حرصاً على نفسه وعلى حياة نوعه .

والفراشة عند ما تدبُّ فيها الحياة ينمو فيها الوازع للسمي وراء القوت ، ولحفظ النسل ، فتعرف أين تضع بيضها ، وكيف تدخر القوت لصغارها ، ناسجةً في ذلك على منوال سلفها ، مع أنَّها لم تحتاط به اختلاطاً يؤذن بالمحاكاة .

أمَّا الإنسان فقد خلق ضعيفاً محتاجاً إلى المعونة في كلِّ مطالب الحياة . ولا يُدرى أهذه طبيعة فيه ؟ أم أثر فيه التحضر ، فخرمه منذ

أجيال مديدة لذّة الاستفادة من تمرين غرائزه ، ففقد النخوة ،  
وورث الجود ، وتعوّد الاستناد إلى غيره ، ولا يزال الضعف يتسرّب  
إليه من جيل إلى جيل ، كلّما ارتقت به المدنيّة إلى معارج السكّال ،  
شأن الحضريّ إذا قيس بالبدويّ .

واعلم أنّ المعز والبقر يشبهان الغزال وبقر الوحش ؛ غير أنّ البيئته  
فرّقت بين طبيعتهما كلّ منهما ، فضعف المعز ، وقوى الغزال ، إلى حدّ  
أنّك لو تركت المعز دون أن تُمدّه بالغذاء ما سعى إلى القوت سعى  
الغزال ، بل تميّيه الحيل في الاحتفاظ بحياته فيموت جوعاً .

## الأفعال المنعكسة والغريزية والعقلية

الأفعال المنعكسة مصدرها النخاع الشوكيّ ، ويهيّجها المؤثر  
الخارجيّ ، كما إذا حككت قدم نائم فإنّها تنسحب من مركز التأثير .  
وقد حققت التجارب أنّ الضفدعة إذا جرّدت نخبها ، وضغط أحد  
جوانبها ، فإنّ قدمها المؤخّرة التي في جانب العضو الواقع عليه تأثرت  
الضغط تتحرّك لمعارضة المؤثر . ومن هذا النوع بكاء الطفل عقب  
الولادة عند ما يستنشق الهواء . ومنه العطس والسعال والتنهّد  
والتأوّب وطرفّة العين .

أما الأفعال الغريزية فمجموع أفعال منعكسة ، على ما حققه

الحكيم سينسر<sup>(١)</sup>. فإنَّ غريزة الهرب من العدُوِّ مثلاً تتضمَّن عدم اطمئنان النفس ، وخوف البطش ، ودهشة الفكر ، وغليان الدم ، واضطراب الأعصاب ، وسرعة التنفس .  
أما الأفعال العقليَّة فمصدرها المخ انظر هذا الشكل . فالحواس



(١) ( Herbert Spencer ) هربرت سينسر توفي سنة ١٩٠٣ م  
هو الحكيم الانجليزي الطائر الصيت المشهور بالحكمة والبراعة في الكتابة .  
طرق كثيراً من أبواب الحياة واشتغل بالهندسة والسياسة والشئون الاجتماعية ،  
وتزوَّد منها بالحقائق الجمة التي ساقه طوعاً أو كرهاً إلى طرق أبواب الحكمة ،  
والتبحر في العلوم العقلية ومباحث التعليم

تفعل بالأشياء ، فترسل أثر انفعالها إلى المخ من طريق أعصاب  
الحس ، وهنا يتدنى الإدراك ثم الوجدان . وبعد ذلك يهبط الإذن  
إلى أعصاب الحركة فالعضلات لتنفيذ الحكم دون مانع يعترضه ،  
ما دام الجسم سليم الأعضاء ، قادراً على الحركة ، مجرداً من قيود  
الاستعباد ، مسوقاً بدافع من الشوق ، وإن يكن دقيقاً كما هو في  
الأفعال الغريزية ، فإن لها حالات نفسية كحالات الأفعال العقلية .  
ومن هذا الشوق ما يشاهد عند القط والكلب من محبة الوطن .  
ومنه إشفاق الدجاجة على أفرانها . فتخيمها بجناحها خوفاً عليها من  
تأثير الجو . ومنه لذة الظفر على العدو والنكابة به ، ولو تكبد  
الشخص في سبيل إرهابه ما لا طاقة له به من التعب . ومنه الميل إلى  
حفظ النوع عند الأم التي لا يغيب عنها ما تلاقيه من الآلام في  
الإرضاع والتربية وغيرها . ويشاهد مثل ذلك عند الدجاجة الحاضنة  
لبويضها ، فإنها لا تنفك ذابلة الجسم مضطربة الأعصاب ، وإذا  
حيل بينها وبين بيضها تشورتغضب . فهذا كله يدل على أن  
الوجدان عامل كبير لتحقيق الأعمال ، وأن الجسم في سبيل تحقيق  
مطالب الغريزة لا يبالي أن يحارب النوازل ، ويكافح المصائب  
ليدرك أمانيه .

## الوراثة في الغرائز والعادات

عرفت أن الغريزة قوّة فطريّة تصدر عنها أفعال قهريّة لغاية محدودة .

أمّا العادة فإنّها مرونة ، تحدث من تكرار ما سبق للعقل مزاولته من الأعمال ، بحال تجمل عرضها آلياً ، بدون الاستعانة بالعقل . فبين الغريزة والعادة شبهة في الغاية ، وتباين في الوساطة .

وقد اتفق العلماء على أن الغرائز تورث . واختلفوا في وراثة العادات ، ففريق أجازها ، وفريق منعهما ، وكلاهما يُدلى بالحجّة .

فحيزو الوراثة يستدلّون بأمر لا يعتقد به إلاّ علماء الآثار الحيويّة ، وهو ما يشاهدونه من التحسين التدريجيّ في البقايا المتحجرة من النبات والحيوان . قالوا لم يجز هذا التحسين عرضاً ، وإنما أوجدته الممارسة والتربن . فالحيوان إذا استعمل عضواً في قضاء مصالحه فإنّه يقوى ، وتنقل حاله بالوراثة من الأصل إلى الفرع ؛ واستدلّوا على ذلك بانتقال المرض بالوراثة من الأب إلى ابنه .

ومانعو الوراثة — وهم النشوئيّون — يمتقدون أن هذا التغيّر إنّما أتى بتأثير المصادفات ، وهي ليس لها نظام محدود ، فقد تظهر في الطول أو العرض أو اللون أو القوّة ، والفطرة تختار الأصابع ، والحياة جهاد وجلاد ، والجسم لا يجيأ إلاّ إذا تغلب على الطوارئ ،

محيزو الوراثة  
للعادات

مانعو الوراثة  
للعادات

حتى إذا ضعف عن احتمالها وهن وقضى عليه . بهذا الرأي فسّر دارون<sup>(١)</sup> ومشايعوه مذهب النشوء .

ثم دحضوا أدلة مجيزى الوراثة أولاً بأن الجذع والعمى والجهل كلها عوارض ولا ينتقل منها شيء بالوراثة . وعادة بتر أذنان الأغنام شائعة بين الرعاة ، ولم يروا في نتائجها تشويهاً مثله . وعادة ليس الصينيات الأحذية الحديدية لتصغير أقدامهن فشت منذ أجيال ، وليس لعامل الوراثة فيها من تأثير . وعادة الختان يشترك فيها الوالدان ولا يظهر لها في الأولاد أثر . أمّا انتقال الأمراض من الآباء إلى الأبناء فسببه العدوى لا الوراثة .

ثانياً حقق البحث أن الخلايا الفارزة لمادة النسل تخالف خلايا الجسم ، وهي مع ذلك منفصلة عنها إلا فيما يتعلق بالغذاء . فالعمل الذى يؤثر وقعه فى الجسم ، ويحدث كجلاً أو نقصاً ، لا شأن له مع المادة المفروزة لحفظ النوع . والفطرة وحدها تسلك بالنوع سبيل الصلاح ، وسنن تنازع البقاء تقضى بالحياة أو بالفناء إذا وجدت أو عدت الأسباب .

وقديماً ظنّ بعض الطبيعيين أن العضو يحدث الوظيفة ، فاليد تكتب ، واللسان ينطق ، والعين تبصر . ورأى غيرهم عكس هذه القضية إذا كان فى العضو استعداد مخصوص للعمل ، فاليد إذا

(١) ( Darwin ) دارون توفى سنة ١٨٨٢ تطلع فى علمى النبات

والحيوان ، وهو عالم انجليزى برز فى المباحث الطبيعية النشوتية .

تعطلت عن العمل تشنّجت ، ولا يكون علاجها إلا بالحركة ، واللسان إذا صمّت خرس ، ولا يبرئه إلا التمّرين ، والمرأة المرضع يضخّم ندياها ، ومن تهملها لا يكادا يظهران عندها ، هذان رأيان لا يخلو كلاهما من تطرّف . وصفوة القول أنّ العضو ووظيفته يؤثر أحدهما في الآخر ، إذ العضو آلة العمل ، والعمل يرهف من حدّه ، ويزيد تركيبه متانةً بنسبة ما يعانیه من حسن الأداء والثابرة .

وقد تصدّى غلادستون<sup>(١)</sup> لمذهب النشوء والارتقاء فنقده حيث قال : إنني أحاول أن أرى الرقى الفكرى الذى حازه الخلف ، وقصّر عنه السلف ، تصديقا لعقيدة النشوء ، فلا أكاد أجده أثرا . لا يدور بخلدى أننا أقوى أجساما من أسلافنا أبناء القرون الوسطى ، بل أعتقد أننا على الضدّ من ذلك ، فإذا وازنا نفوسنا بأسلافنا أبناء القرن السادس عشر مثلاً ، نجد أنهم فاقونا بسطةً فى الجسم والعقل ، ويرشد البحث بالفياس إلى أن نابتة المستقبل لا تبشر بهيات فطرية أعظم مما أحرزنا . غاية ما أفهم أن الرقى الذى وصلنا إليه إنما هو ثمرة الجدّ والاختراع ، وترقية شئون الاجتماع ، واحتكاك العقول التى قدحنا زنادها ففجرت منابع الثروة ، وأرشدت إلى مناهج الصنعة ، وتبادل المنفعة . هذه كلها أمور لا أكاد أتصوّر أنّ للوراثة الشخصية فيها أثرا . أمامنا

---

(١) ( Gladstone ) وليم غلادستون توفى سنة ١٨٩٨ م كان خطيباً مفوهاً يرتجل الموضوعات السياسية الهامة ويلقبها أينما سار . تقلب فى مناصب إنجلترا السامية ، وكان من المحافظين بحسب شعوره ، ومن الأحرار بحسب أفكاره

التاريخ حافلاً بأخبار الأمم التي أخضعت العالم وملكته أقطابه ، ثم دالت دَوْلها ، وعفت ممالكها . فإذا تسامحنا وقلنا : إنَّ الحوادث وحدها هي التي هوت ببعض الأمم إلى الخضيض ، فلا يسوغ لنا أن نتحكّم ونقول : إنَّ القوى التي أخذت بيد الأمم الأخرى إلى معارج الرقي إنما هي وراثيّة . كلُّ ما صادف طعنًا في النشوء في الأمور العقائية نجده موجّهًا إلى الأمور الدينيّة والأديّة . فالثقة وسلطان الدين فينا أضعف ممّا كنا على عهد الإصلاح اللوثيري . زد على ذلك أنَّ الحرّية قد خرج بدلولها طلابها عن الحدود المرعيّة حتّى صارت شروداً وفوضى «

إذا وقفت على هذين المذهبين في صحّة وراثية العادات ، عرّضنا عليك مسألة لا مُشاحة في أنها تحتاج إلى رويّة ، وهي ما تحققت وراثته من الصفات الكاملة في الإنسان والخيول وكلاب الصيد . فالإنسان يرث بالمحتد نفساً كريمة نبيلة ، وأصائل الجياد تورث ذرارها طيب الخلق وسرعة الجرى ، وكلاب الصيد تحتفظ ذرارها بميزات في الصيد والقتل .

فهذه أمور يستدلُّ بها الفريق الأوّل على صحّة وراثية العادات ، ويؤوّلها الفريق الثاني بأنَّ الموروث هنا ليس صفة كسبيّة ؛ بل الموروث حسن تكييف الأعضاء ، واستعدادها لأداء وظائفها على الوجه المحمود ، إذ ليس لها غنيّة عن التمرين والممارسة . على أنَّ هذه الممارسة إنما هي تمرين الفرائز التي تحتويها العادات .

ومجمل القول أنَّ العادة وراثيّة باعتبار عناصرها المكوّنة لها ،

وكسبيرة باعتبار ضمّ هذه العناصر بعضها إلى بعض ؛ كالساعة المصنوعة من جملة موادّ أوليّة ، ميزتها الصنعة ، وألفت بين أجزائها تأليفاً مناسباً لإرادة الصانع ومبلغ علمه وذوقه . فالباني يجمع إلى بنائه صخراً وأجرّاً وملاطاً ، ثمّ ينسقه قصراً نخماً يبدى فيه ما أوتيه من حسن الذوق ، وليس بينه وبين الكوخ الحقير من فرق إلا في أوجه النسب ، وإحكام الوضع ، واستجماع ضروب التأثير .

## الفطرة ونزعاتها

تضاربت آراء الباحثين في نزعات الفطرة فمنهم من ذهب إلى أنها خير ، ومنهم من ذهب إلى أنها شرّ ، ومنهم من رأى استعدادها للأمرين ، ومنهم من رأى خلوّها منهما .

من ذهب إلى أن الفطرة خير (١) ذهب سقراط<sup>(١)</sup> إلى أنها خير ، ونفس الطفل في نظره وعاء لأصول الكمال . فعوّل في طريقة تعليمه على السؤال والمناقشة في أيّ غرض يريد ؛ لافرق بين أن يكون الطالب طفلاً أو صبيّاً ، شابّاً أو كهلاً ، وله طرق خلاّبة يستعمل بها المستول إلى إجابة أسئلته بحال

(١) (Socrates) سقراط حكيم إغريقي توفى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد تربي وخدم جندياً بالجيش الأثيني وامتاز بالاقدام ، ثم اشتغل بالسياسة فكان فيها قطباً ، ثم عمد إلى إصلاح شؤون الأمة بطريقة أبدعها فحذب اليه النفوس ، فحقد عليه العلماء المعاصرون ورموه بالزندقة والحط من قدر الآلهة وإفساد عقول النشء . من أجل هذا حكم عليه بالاعدام .

يسبر بها غور مداركه ، ويساعده على إدراك الحقيقة . وكان مع جلال قدره وعلو كعبه وتوقد قريحته يتدلى إلى أفق التلميذ ، ويمختار له من الأمور ما يوافق هواه وفي وسعه الإجابة عنه ؛ ثم يناقشه ويسوق له الحقائق باحثاً ومنقباً ومستشكلاً . ولا يزال ينبئه بالتدرج على الخطأ ، ويفتح له أبواب الصواب بتأليف المقدمات واستنباط الضوابط حتى يصل به إلى شاطئ الحقيقة سالماً .

بهذه الطريقة البديعة انقادت لسقراط العقول الشاردة ، والميول الخامدة ، والحقائق الفذة . وتبعه فيها فريق من أساطين المؤذنين لما اشتمت عليه من دلائل الرصانة والحكمة . وإني أسوق إليك مثلاً بسطه آدمس Adams في كتابه في التعليم : —

المعلم يا هذا أنفُسك حارٌّ أم بارد ؟  
التلميذ حارٌّ .

م رأيت أناساً على المائدة ينفُخون في المرق الحارِّ وهم يأكلون ،  
فليت شعري ما ذا أرادوا بهذا ؟

ت يريدون تبريد المرق .

م إذن ما الذي يبرد المرق ؟

ت النفس .

م كيف ذلك ؟ وقد قرَّرت أن النفس حارٌّ . والحارُّ لا يبرد  
الأشياء . فالنفس حينئذ بارد .

ت هذا حق . وأنا أغير رأبي في أن النفس حارٌّ .

م هل رأيت وَخَوَاحِيَهُ الحوذيين؟ وهي أنهم ينفخون بأنفاسهم  
في أيديهم . ولعل أغلب التلاميذ يفعلون كذلك في اليوم  
القر . فلأي غرض هذا؟

ت غرضهم تدفئة أيديهم .

م فما الذي يسخن أيديهم حينئذ؟

ت نفسهم .

م إذن نفسهم حار . وقد أفضت نتيجة البحث معك إلى أن

النفس ليس حارًا ، وقد علمت منك الآن أنه حارٌ فما ظنك به؟

ت هو حارٌ أحيانًا وبارد أحيانًا .

م متى يكون حارًا ؛ ومتى يكون باردًا؟

ت يكون حارًا في الصيف . وباردًا في الشتاء .

م متى ترى الناس ينفخون بأنفاسهم في أيديهم ليدفئوها؟ أفي

الصيف هذا؟

ت لا . بل في الشتاء .

م لكنك ذكرت الآن أن النفس يكون باردًا في الشتاء .

ت ارتبك ولم يدر بماذا يجيب .

م أيّ الشيتين أكثر حرارة؟ المرق أم يد التلميذ في الشتاء .

ت المرق أكثر حرارة .

م أيهما أشد سخونة؟ أنفسه أم يده؟

ت نفسه .

م  
ت  
أيهما أشد سخونة ؟ أنفسه أم المرق ؟  
المرق .

م  
إذا فطنت إلى هذا علمت أن النفس أكثر سخونة إذا قيس  
بـيد التلميذ شتاء ، وأقل سخونة إذا قيس بالمرق .

ت  
نعم . وقد بدت على وجهه أمارات الارتفاع .

م  
لا يخفى أن النفس تختلف حاله باختلاف ما يقاس به ، فيكون  
أكثر حرارة إذا قيس بشيء ، ويكون أقل حرارة إذا قيس  
بشيء آخر . أليس كذلك ؟

ت  
هذا حق لا شبهة فيه .

م  
ت  
فماذا هو إذا قيس بالمرق ؟ أهو حار أم بارد ؟  
بارد .

م  
ت  
وماذا هو إذا قيس بيد التلميذ عند اشتداد البرد ؟  
حار .

م  
فالنفس حار إذا قيس بيد التلميذ ، وبارد إذا قيس بالمرق ،  
وحقيقته واحدة لم تتغير في ذاتها .

ت  
لقد استفدت من بحثك هذا ، ولقد وصات يقيناً إلى معرفة  
الحق وزال عني الشك ، وأشكر لك هذا الصنيع .

(٢) وذهب فلوطين<sup>(١)</sup> إلى أن الفطرة شر ، والنفس في نظره  
من ذهب إلى أن  
الفطرة شر

(١) فلوطين Plotinus توفي سنة ٢٦٢ قبل الميلاد وهو مصري ومن

أسرة رومانية . واعتمد في نظرياته على فلسفة افلاطون Plato

جوهر مجرد مستقل ، هبطت من العالم العقلي إلى عالم المادة لتبتلى .  
وبينما هي في أثناء الحياة المادية ، يمكن اتصالها بالعالم العقلي بتصنيفاتها  
من أدران اللذات ، وأخذ الجسم بأشد أنواع الحرمان من ألوان  
الطعام والشراب ، وحصر الفكر في أمر هذه القربي ، والتخلص من  
كل ماله علاقة بالعالم المادي ، والتجرد من زخرف الدنيا ومن الميول  
النفسية . ومن يسس نفسه بهذه الرياضة يرهقها بالآلام والمشاق ،  
ويرهف حدّها بدوام الصوم ، وإهمال مطالب الجسم من النظافة  
واللبس والغذاء وإماتة الحواس ، والعزلة عن الناس . فإذا تم له ذلك  
فإن النفس تتطاع إلى العالم العلوي ، وتتوق إلى ما حواه من جمال  
وصناء ، وتتصل بمبدعها . فالتصال النفس الطاهرة الأصل بالعالم  
المادي حول فطرتها وصبغها بصبغة الشر . وقد جرى على هذا المبدأ  
أبو الطيب المتنبي<sup>(١)</sup> إذ يقول : —

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعمارة لا يظلم  
وتبعه أبو العلاء<sup>(٢)</sup> المعري فاعتقد أن الإنسان شرير بطبعه  
والفساد غريزة فيه . وقد ثبتته على هذا المبدأ ما عاناه من الآلام من

---

(١) أبو الطيب المتنبي توفي سنة ٣٥٤ هـ أديب التحق بسيف الدولة بالشام  
ومدحه . ثم دخل مصر ومدح كافورا الاخشيدى ثم هجاه . ثم دخل بلاد  
الفرس ومدح عضد الدولة بن بويه .

(٢) أبو العلاء المعري توفي سنة ٤٤٩ هـ عمى بعد ولادته بأربع سنين وهو  
من أساطين الأدب . لبث زهاء ٤٥ سنة بعيداً عن أكل اللحم ، متزهداً عن  
تعذيب الحيوان بالذبح واعتقد أن الزواج جنابة

خلطائه فاعتزلهم مفتخراً بأنه رهين المحبسين : العمى والعزلة . ومن قوله في هذا المعنى : « ومن جرّب الأقوام أوسعهم ثلجاً »

وفضيلة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول

وقد غلا في هذه العقيدة حزبان كبيران اشتهرا في القرن الثامن عشر، وهما اليسوعيون<sup>(١)</sup> واليانيستون<sup>(٢)</sup>، فقد حملا لواء التعليم، وألغا الكتب، وبنيوا المعاهد العلميّة، وسنّوا الأنظمة المؤسّسة على عقيدة أنّ الإنسان مفطور على الشرّ، ولا يحوّل عنه هذه الفطرة السيّئة إلا صارم العقاب ولذيق الجزاء، وتوسّعا فيهما بدرجة خرجت عن الحدّ المقبول والمعقول .

وفي آخر هذا القرن ظهرت مؤلّفات روسو<sup>(٣)</sup>، وتولّى الردّ فيها على من ظلم الفطرة الشريفة بنسبة الشرّ إليها؛ ووجه سهام مطاعنه الصائبة إلى هذين الحزبين فيما وضعا من الأنظمة، وأقرّاه من المناهج، وسلكاه من السبل التي حرمت النشء مساكنة الطبيعة واستجلاء محاسنها، وقراءة أسطر الجمال في صفحاتها . وقف موقفه هذا بين الفرنسيّين، حاملاً بين جنبيه نفساً أبيّةً ولساناً ذليلاً . واكتسب فطائنه من وحي الفطرة لا من الممارسة؛ وكانت نفسه

(١) (Jasuits) (٢) (Jansenists) (٣) (Rousseau)

روسو كاتب فرنسي توفى سنة ١٧٧٨م تعلم بالممارسة، ولم يطق صبراً على مبادئ اليسوعيين وانتقدها، واختط نظاماً جديداً أودعه كتابه أميل قاضطهدوه وتوعده فهرب منهم . وآراؤه في التلميم نظرية فكرية لا عملية تجريبية .

توافقة إلى الرجوع إلى محاكاة الطبيعة والبعد عن زخارف الصناعة .  
وقد وصلت دعوته إلى أعماق قلوب العقلاء فالتفتوا حوله ، وألف منهم  
عصبة ناوأت هذين الحزبين ، وهزئت بعديّة القوم منهما حتى قام من  
أجلها نذير الشرّ ؛ وتأججت بينهما نار العداوة ، وكانت من مثيرات  
الثورة الكبرى التي قلبت فرنسا ظهراً لبطن . فانهز هذه الفرصة ،  
وشرع يفرس في باحة هذه الأناقض دّوح الأفكار الصحيحة .

درس روسو الطباع الإنسانية بالعيان ، فكان يحتجب عن  
النشء بحيث يراهم ولا يرونه ، ويتفقد حديثهم فيما بينهم ، وحركاتهم  
التي لا رياء فيها . وكتابه « إميل » حسن الأسلوب جميل الصوغ  
بديع التأثير ، تتمى مطالبه في العواطف تمشى الروح في الجسم .

(٣) جاء القرآن الشريف بمقيدة أن الفطرة استعداد للخير

من ذهب الى أن  
الفطرة استعداد لهما

وللشرّ معاً . قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ  
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » <sup>(١)</sup> . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَأْتِيهَا مِمَّا تُغْوِيهَا  
وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْ دَسَّاهَا .  
« إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا  
بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

وقد أوزع الله النفس أن تتعشق المحسّات التي هي أصول  
للمعاني الذهنيّة . فإمّا أن تسمو فتتعلق بالفضائل وتفر من الرذائل ،

فتكون مندرجة تحت هذا الخطاب « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ». وإمّا أن تنكص على عقبها ، وتزج إلى العالم المادّي ، وتتلوّث برذائله وأوضاره فتبوء بالشرّ « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » .

والحركات الإرادية مناط الثواب والعقاب ، وبها تقاس درجة الميول الكسبيّة .

(٤) ورأى كانت<sup>(١)</sup> أنّ الطفل منذ ولادته إلى سنّ محدودة ليس له حياة أدبيّة ؛ فلا تنسب فطرته إلى الخير ولا إلى الشرّ لأنّه لا يعقل مايفعل . وعشاق هذا الرأى لا ينكرون الوساطة بين الخير والشرّ .

إلى هنا مرّت بك آراء الحكماء في نزعات الفطرة وهي أربعة . نقد المذهب الثاني ولا أريد أن أتصدّى لنقدها ، وتمييز نغمها من سميتها ، وإمّا أكل إلى اللبيب الفطن إنعام النظر في مضامينها ، وأعرض عليه شبهات تحوم حول عقيدة فطرة الشرّ التي مقتها كبار المرّبين . فعشاقها يعتقدون أنّ الأرض إذا أهملت من الزراعة أنبتت الحسك<sup>(٢)</sup> بطبيعتها . وهذا مردود لأنّ إهمالها من الزراعة يجعل الفطرة الطاهرة خاضعة لما تلقيه الرياح اللواقح من البزور . وأنّ الحسك النبات في البور<sup>(٣)</sup>

(١) كانت Kant حكيم ألماني توفي سنة ١٨٠٤ م اشتغل بالحكمة والرياضيات

والطبيعيات ، وعاش طويلاً متمتعاً بصحة نادرة المثال

(٢) نبات في ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب

(٣) الأرض قبل أن تصلح للزراع

ليس نأتجا من فطرتها الخبيثة بل من إهمال تعهدها . وليس من الحكمة أن تُطلق الدابة تميث في الأرض فساداً ثم تُنحى باللوم على طبيعتها . كذلك يعتقدون أن الطفل فيه قسوة وجبروت ، يُمسك الطائر بلا رحمة ويسومه العذاب ، ويتناول الشيء فيفترق أوصاله . وليس اعتقادهم وجيهاً ، لأنّ خلوّ فكر الطفل من الحقائق دفعه إلى مزاولة التجارب ، فيحلّ العناصر ويعقدها ، ليستخرج من أعماله حقائق يلتذّ بوجودها .

كذلك يعتقدون أنّ الطفل يسرق . ولو علموا أنّه ساذج جاهل لمعنى الملك لجرّدوه من نسبة الشرّ إليه . أمّا كونه يعُدّ نفسه مالكة لكلّ ما يجده فسلم ، ولكنّ هذا راجع إلى حبه الغريزيّ للحياة ، وإلى جهله معنى الملك في مصطلح المجتمع الإنسانيّ .

كذلك ينسبون إليه الصاف والكبرياء ، والحقيقة أنّ الآباء يُطرون أبنائهم ، ويغلون في مديحهم فيخدعونهم ويفرّونهم ، ويتساهلون في عرض الأمور عليهم بعيدين عن الحيلة والتدبّر ، فيثبت في ذهن الطفل هذا الأثر الرديء ، ومرجع ذلك حمقهم ، وطبيعة الطفل من ذلك بريئة .

كذلك يتهمونه بالشره . ولم يوصم بهذه الخصلة إلا بانغمسه في النعيم . ولو أنّهم أبعده عن مظاهر الترف ، وصرفوه عن العادات المزرية ، وحالوا بينه وبين البيئة السيئة ، لوجدوا منه شخصاً كريم الطباع . كذلك ينسبون إليه الكذب ، وما صدقوا فيما وهموا ، ولو فطنوا

لعلوا أن الكذب أثر لازم للخشونة التي يلقاها الناشئ من قساة  
المعلمين ، فيختلق الكذب ليتلمس النجاة من الحيف ، ويحاول الهرب  
من شرّ مستطير ، ويسدّل على الحقيقة غشاءً كشيفاً .

يخدم المعلم غيظاً ويدعو الطفل أمامه ، ويشدد النكير عليه  
سائلاً عن كسر الإنياء مثلاً . فينسى الطفل الحق عند الإجابة ،  
تخلصاً من شرّ العقوبة وحبياً في السلامة .

كذلك يكذب أحياناً في ادعاء الإفلاس وهو موسر ، لأنه  
يخاف طمع الطامعين في ماله .

وزاه أحياناً يكذب ، وتحرّى السبب فنجده مرضاً قلب كيانه  
وجعل الباطل أمامه حقاً . وقد روي أن طفلاً كان مضطجماً في  
فراشه ، ولما غابت عنه خادمه رأى كأن الشمعة المضاءة في الحجرة  
قد استطالت حتى زاد طولها على متر ، ثمّ تقدّمت إليه مرّة وابتعدت  
عنه أخرى . قصّ هذا على خادمه فاعتقدت أنه كاذب ، ثمّ دعت  
إليه أمّه فقصّ عليها الرواية عينها واهماً أنها حق لا ريب فيه . ولما  
استجبت الحقيقة تبين لها أنه مصاب باضطراب عصبي مشفوع  
بجحمي ، ومن كان هذا شأنه فإنه يهندي .

وربّما تعلقت نفسه بالكذب لإهمال المشرفين عليه اختيار  
ما يقرؤه ، فتسوّل له نفسه قراءة الأساطير الخرافية ، والروايات  
الغرامية ، فتجنى عليه .

وغالباً يركب معه المعلم مركباً خشناً ، فيسوق إليه المعاني الدقيقة

مجرّدة من ثوبها الحسّي فيشّت ذهنه ويضلّ عن الحقّ ، فيلتجى إلى الكذب فيلقّ منه ما يشاء ، وإلى الوشائيات فيفتريها على من يشاء ، شأن من لا يميّز العثّ من السمّين ، والخطأ من الصواب ؛ وشأن من لا يفرّق بين الإساءة والإحسان ، ومن لا يوازن بين الإحسان والإحسان . إذا زالت كلّ هذه العوائق وصاح مزاج الطفل ، سرى الأثر الواقع على الحواسّ إلى الأعضاء المنفّذة ، وفعل الفعل الذي يرشد إليه وجدانه ، فتجده يلتزم الصراحة والصدق حتّى يمتادها .

### دطرة الرجل والمرأة

ذهب سقراط وأفلاطون<sup>(١)</sup> إلى أنه ليس بين الرجل والمرأة تفاوت كبير في القوى العقليّة . ولذلك لم يفرّقا بينهما في العلوم التي يجب عليهما دراستها . وعارضهما أرسطو<sup>(٢)</sup> بأنّ الطبيعة البشريّة

(١) أفلاطون Plato توفي في القرن الرابع قبل الميلاد وهو تلميذ سقراط ، اغريقيّ الجنس جال في أنحاء المعمورة ثم عاد إلى أثينا وفيها أسس مدرسته التي سماها Academy وصارت محطاً لدراسة الفلسفة

(٢) أرسطو Aristotle توفي سنة ٣٢٢ ق م وهو تلميذ أفلاطون . ومع أنه كان يوقر أستاذه قد عارض أفكاره . ولما مات أستاذه وكانت سنّ أرسطو ١٤ سنة ناقت نفسه إلى رئاسة المدرسة ، لكنه حرّمها فغادر أثينا ؛ واستدعاه فيليب ملك مقدونيا وسلمه ابنه الاسكندر ليعلمه . وبفضل هذه التربية نهض الاسكندر بأعباء الملك بعد أبيه بهمة نادرة المنال . ثم رجع أرسطو إلى أثينا وأسس فيها مدرسته وعكف على التدريس فيها . وبموت الاسكندر أقلّ نجمه وتغلب عليه الحاقدون فهرب منهم إلى حيث توفي

فرقت بين طبيعتهما فميزت الرجل بالقوة ، وخصت المرأة بأنواع المتاعب تقاسيها زمن الحيض والحمل والوضع والرضاع . وهذا التخاف دعاه لأن يرسم لكل من الرجل والمرأة نظاماً يلائم المزاج .

ولقد وفق المربون بين رأييهما ، فأروا أن لا تفاوت بين الولد والبنت في غضون السنوات السبع الأولى ، فلا غضاضة إذا اشتراكاً معاً في نظام واحد . ثم تنفرج زاوية الخلف بينهما في زمن المراهقة ، إذ البنت تدخل سريعاً في طور النماء ، وهذا يستنزف نشاطها ويصيرها عرضة للأمراض المصيبة ، وقد دل الإحصاء على فشوة الأمراض بين البنات وهن في طور التعلم . قرروا هذا مستنديين إلى أن وزن دماغ الرجل أثقل بنحو ١٠ / منه في المرأة ، وثقل المخ من دواعي الفطنة والذكاء ، ويناسبهن حينئذ أن يكون بين دروسهن شيء من فنون الجمال ، ليعت فيهن الشوق إلى التعلم يدفعهن إلى مقاومة أسباب الفتور .

نعم يتبادر للمطلع على هذه النسبة أن الرجل أقدر من المرأة على الحركات العقلية ، غير أنه إذا نظر من جهة أخرى إلى أن نسبة ثقل المخ إلى ثقل الجسم في المرأة أوفر منها في الرجل ، يتبين له أن لكل منهما مواهب يكونان بها قويين أو ضعيفين إذا قاما بالواجب أو قصرأ فيه . أمّا ما يشاهد من رجحان القوى البدنية في الرجل فلما يستلزمه جهاده وجلاده للحصول على القوت ؛ وأمّا هي فقد قصرتها العادات

القومية على تدير البيوت ، فلم تتمتع بما يتمتع به الرجل من مساكنة الطبيعة ، وتمرين الأعضاء تمريناً يدعو إلى نموها وازدياد قوتها .

## الحيوان والانسان

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد تحير عقولنا إذا نظرنا إلى خلقه وحركاته وانقياده لسلطان الغرائز ، وقد يشارك الإنسان الحيوان في بعض هذه الغرائز فيستأنس بذلك ، ولا يعجب من فواعلها كما يعجب من مثل غريزة الهداية إلى الوطن عند بعض الحيوان وعند أكثر الطير والحشرات . أخبرنا التاريخ أن حمام الزاجل حمل البطاق وطار بها من مكان إلى آخر ، حتى استخدم في الحصار ، لحمل الأخبار ، وقد أقامت له مصر في الأعصر الغابرة أبراجاً ، وعينت لها حُرَّاساً يراقبون وصول الحمام ليلاً أو نهاراً .

والفواخت وهي من ذوات الأطواق تقطن الأقاليم الشمالية ، وإذا آلمها البرد هجرت موطنها ، وطارت مسترشدة بقائد تختاره من بينها إلى حيث يطيب لها المقام ، ثم تقفل راجعة إلى وطنها فتهتدي إليه كأن بينها وبينه جاذبية ، وربما لا يتأني لها وهي طائرة في جوّ البحار أن ترى معالم تعرّف بها طريق الوصول .

ريبت قطاً بمنزلي ، ثم طاحت بأخلاقه الطوائح ، فوضعت في قفص موصل ، وأسدت عليه غطاء ، وأطلقت على مسافة بعيدة . وما

كاد يمضي أسبوع حتى عاد إلى منزلي وهو يموء بصوت المعتذر المستاء  
نتلمس السرّ في الهداية إلى الوطن عند هذه الحيوانات فلا نفهمه،  
لأننا لا نشاركها في هذه الغريزة . ويتبادر إلينا أن الحيوان يعتمد  
على وجدانه ، أو أن له قوّة خفيّة تدرك التغيّرات التي يلقاها في طريقه  
في أثناء مهاجرته فيضبطها ، ثمّ يستدكرها عند ميسر الحاجة  
وإذا أنعمنا النظر إلى الزنبار نراه قبل أن يتحوّل عن عشته يحوم  
حوله على دوائر صغيرة فكيرة ، كأنه يرسم في خياله معالم موطنه  
لتساعده على الاهتداء إليه

أمّا الإنسان فما أضعف حظّه من القوى البدنيّة ، تلقاء ما يمجج  
بصدره من آلاف المطالب فيما يتعلق بغذائه وملبسه ومسكنه حتى  
استفزّنه القدرة الإلهيّة إلى مشاركة بني نوعه في ميادين المحاكاة  
والمنافسة ، ودأبما يكّد لسدّ نقصه ، ورأب صدعه . ومع أن حبه  
لهذه المشاركة فطريّ ، لا ينال غرضه على ما ينبغي إلا بالتعليم الصحيح  
الذي يلائم ما ركز فيه من الاستعداد للتعام ، والاستفادة من  
التجارب الذاتية والنوعيّة ، والتكيّف عند عروض الحوادث ، ولذلك  
تفاوتت درجات الناس في الجدارة ، على أن اختلاف العناية بهذا  
الاستعداد وبذرائع التعليم ، أوجد بين أفرادها تفاوتاً كبيراً ، كالذي  
نراه بين الحيوان الوحشيّ والداجن الذي من نوعه ، فالوحشيّ بعد  
ميلاده يعتمد على محض سعيه ، والداجن يستند إلى غيره ، فيفقد  
قوّة السعي الغريزيّة .

ولا يخفى أن الطفل إذا زاول الأمور بنفسه ، في حالتي يسره  
وبؤسه ، وذاق من الحوادث مرّها وحلوّها ، وتقاب على نار الكوارث  
صغيرها وكبيرها ، يكون على شاكلة أهل البادية رجلا شهما .

أما الطفل الذي قعد به حفظه ، وساءت تصرفات المشرفين عليه ،  
فاحتفظوا به كالمحتاج خشية أن يؤذيه مرّ النسيم إذا هبّ ، فتراه  
مغبون الحقّ ، ضعيف الصحة ، سقيم الرأي ، كالذي نراه بين أبناء  
الطبقة المترفة .

يخرج الطفل إلى عالم الوجود مجرداً عن معرفة اللغة التي يمتز بها  
عن أغراضه ، جاهلاً سنن الكون ، لا يملك إلا الاستعداد الفطريّ  
الذي يرهف التعليم حدّه ، ويزيده مضاءً وشدة . فما بالنا حينئذ نهمل  
تقويته وهو يزداد بالاختبار نبلاً ، ونسخم فكره بالمعاني الصعبة ، ونلقنه  
قضايا العلوم الدقيقة لنخرجه قبل أوانه رجلاً كبيراً ، لما ذا لا نسلمه  
إلى الحوادث فيتملم من خيرها وشرّها ، ماينبّه التفاته ، ويقوى  
مداركه ، ويفيده في معترك الحياة !

إنّ للتعليم نظاماً إذا روعي حوّل الطفل الضعيف إنساناً كبير  
النفس قوى الإرادة . وما هو ذا قد احتواه جوف الأرض باحثاً  
ومنتقياً عن خيراتها الدفينة ، ورفرف في الهواء حتى صارع النسور  
على قمم الجبال ، وخاض البحار بالجاريات ، واتخذ من البخار والكهرباء  
خادماً لمصالحه في حله وارتحاله .